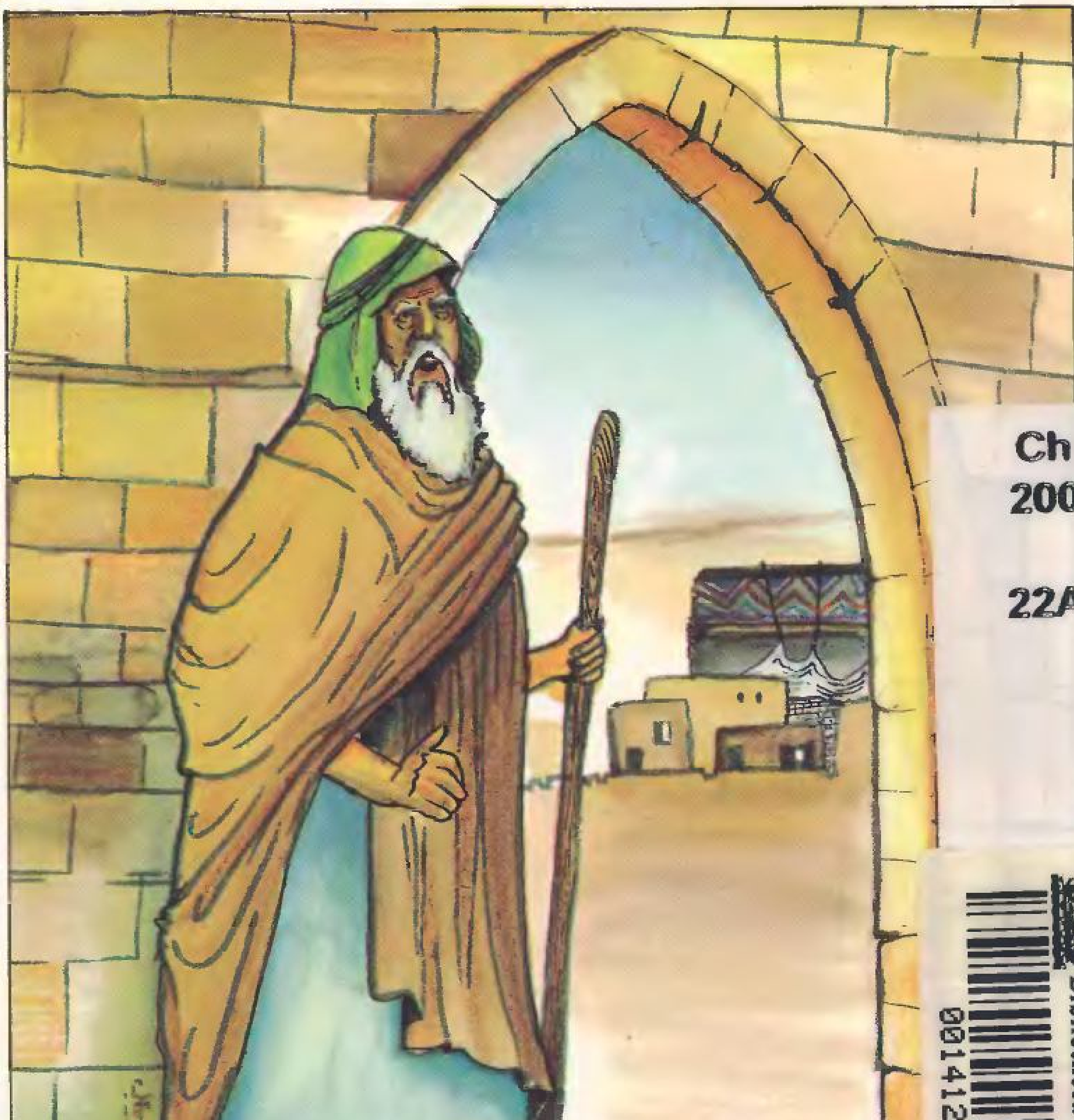
مجموعة سيرة الصحابة الأخيار

١

أبو طالب "كفيل الرسول"



الدار الإسلامية

مجموعة
سيرة الصحابة الأخيار

١

أبو طالب "كفيل الرسول"

الدار الإسلامية
بيروت، لبنان

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى ١٤١١ هـ - ١٩٩١ م

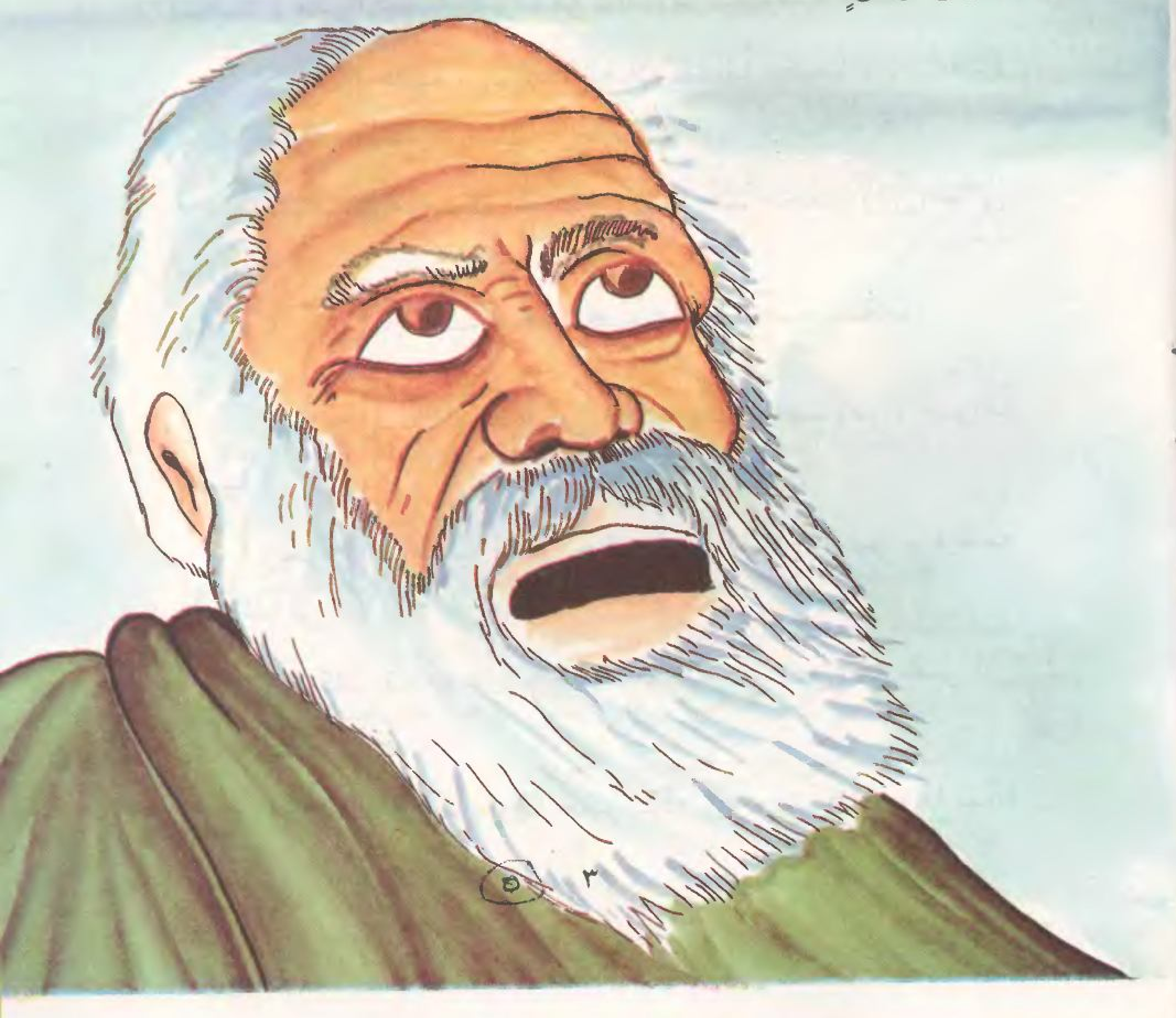
إعداد

كورنيش المزرعة - بناية الحسن سنتر - طابق ثاني - هاتف : ٨١٦٦٢٧
ص . ب : ١٤/٥٦٨٠ - تلكس : ٢٣٢١٢ غدير
فرع ثاني : حارة حريك - شارع دكاش - هاتف : ٨٣٥٦٧٠ - ص . ب : ٢٥/٢٠٩

أَبو طالبٍ : شيخُ البطحاءِ ، ومؤمنُ قُريشٍ

إنَّهُ عبدُ منافٍ بنُ عبدِ المطّلبِ ، أمهُ فاطمةُ بنتُ عمروٍ من بني مخزومٍ ، وكنيتهُ أبو طالبٍ ، وبها اشتُهِرَ .

أما ألقابُه ، فأشهرها : شيخُ البطحاءِ ، وشيخُ الأباطحِ ، ومؤمنُ قريشٍ ! . .



كـانَ أبـوهُ عبـدُ المـطلّبِ زعيمَ قـريشٍ وسيّـدَهــا ، على ملّةِ إبراهيمَ حنيفاً ، قد استعبَدتْه مكارمُ الأخلاقِ ، فسنَّ لمن بعده السُّنَنَ الحِسانَ ، وكريمَ العاداتِ ، فأقرَّها الإسلامُ ، وأكَّد عليها .

وكثيـراً ما كـان عبدُ المـطلبِ يقـولُ : « إنَّ من صُلبي لَنَبِيـاً ، لَـوَدَدْتُ أني أدركتُ ذلك الـزّمـانَ فـآمنتُ بـهِ فمنْ أدركَـهُ مِنْ وُلـدي فليؤمنْ بهِ ! . . . »

وكانَ يختلي بولـدِه أبي طالبٍ ينـاجيه ، ويحـدّثهُ عمَّـا سيكونُ لمحمدٍ ، هذا اليتيمِ الصغيرِ ، من شأنٍ كبيرٍ ، ويوصيه به قائلاً :

ـ « يا أبا طالبٍ ، إن لهذا الغـلامِ لشأنـاً عظيمـاً ، . . انصرْه بيدِك ولسانِك ومالِك »

ولما ماتَ ، رضوانُ الله عليه ، كَـانَ عُمْرُ محمـدٍ (ص) ثماني سنواتٍ .

* * *

وتمتزجُ مذ ذاك ، حياة أبي طالب بحياةِ محمدٍ (ص) امتـزاجاً عجيباً ! . .

ويكرّسُ أبو طالبٍ كامـلَ حياتِـه لهذا الغـلامِ اليتيمِ ، فيضمُّه إليه ولداً من أولادِه ، أثيراً . .

بـل كان يقـدّمُه عليهم جَميعـاً ، فلمحمدٍ (ص) في نفس أبي طالبٍ مكانٌ خاصٌ ، . . .

فإذا غابَ افتقدَه ، وإذا حضرَ تـودَّدَ إليه ، متـرفقاً ، وإذا سـألَه

أجابَهُ ، وإذا حضرَ الطعامَ ولم يجدْه بين أولادِه ، يرفعُ يدَه قائِلاً لهم :

ـ « كما أنتم ، حتى يأتيَ ابني ! . . . » .

ويأتي محمدٌ (ص) ، فيناولُه قَعْبَ اللبن (وعاءٌ كالطَّاسِ) ، فيشربُ منه محمدٌ (ص) ويمر القَعبُ الواحدُ على أولادِ أبي طالبٍ كلِّهم ، فيشربونَ منه الواحدَ تِلوَ الآخَرِ ، ويرتوون ! . . . وكانَ الواحدُ منهم يشربُ القَعْبَ وحْدَه ! . .

وكانت يدُ محمدٍ (ص) أولَ يدٍ تمتدُّ للطعامِ ، فيكفي كثرَتَهم على قلَّتِه . .

وتشرقُ أساريرُ أبي طالبٍ عن ابتسامةِ رضىً وفرحٍ بهذا الغلامِ الذي تُواكبُه بركةُ السماءِ ويقولُ له : « إنكَ لمباركٌ يا محمد ! . . . » .

وبِحكم صحبةِ أبى طالبٍ محمداً (ص) في معظم أوقاتِه ، . . .

وبحكمِ إشرافِه على شؤونِه كلِّها ، والقيامِ بكفالتِه خيرَ قيامٍ ، . .

فقد مرَّتْ أمام عيني « شيخِ البطحاءِ » معجزاتٌ عديدةٌ بطلُها هذا الغلامُ الصغيرُ الذي يتلألأُ وجهُه نوراً .

وإنْ نسيَ أبو طالب ، فلن ينسى أربعةَ مشاهدَ ، لا زالتْ عالِقةً بذهنِه ، فهي تلوحُ أبداً أمامَ ناظرَيْه :

* المشهدُ الأولُ :

كان العائفُ (هو الذي يتكهَّنُ بالطيرِ) إذا قدِمَ مكةَ أتاهُ رجالُها بأولادِهم وكان منهم أبو طالبٍ ، ومعهُ محمد (ص) . ويقدِّمُه أبو طالبٍ إليه ، فَيَتأمّلُه ملياً ، ولا تلبثُ أن ترتسمَ على وجههِ ذي التجاعيدِ علاماتُ دهشةٍ واستغرابٍ ، ثم يَشغَلُه شاغِل . فيتناولُ أبو طالبٍ محمداً (ص) من أمامِه وقد أوجسَ من العائفِ خِيفةً .

ويبتعدُ أبو طالبٍ بابنِ أخيه عنِ النَّاسِ ، دونَ أن يلتَفِتَ لذلك أحدٌ .

وبينما هوَ كذلك ، وإذا بصُراخِ العائفِ :

ـ « الغلامَ ! . . عَلَيَّ به ، ويْحَكُمْ رُدّوا عليَّ الغلامَ الذي رأيتُ آنِفاً ، فوالله ليكونَنَّ له شأنٌ ! »

أبو طالبٍ وحدَه أدركَ ما يعني العائفُ بِصُرَاخِه .

* المشهد الثاني :

اصطحبَ أبو طالبٍ يوماً ابنَ أخيه محمداً (ص) في سوقِ « ذي المجازِ » ، ـ وهو مكانٌ يبعُدُ عن عَرَفةَ بمقدارِ فرسخٍ ـ . وظمِىءَ أبو طالبٍ ظمأً شديداً

ومن أينَ له بالماءِ في هذا المكانِ القَفْرِ ؟ .

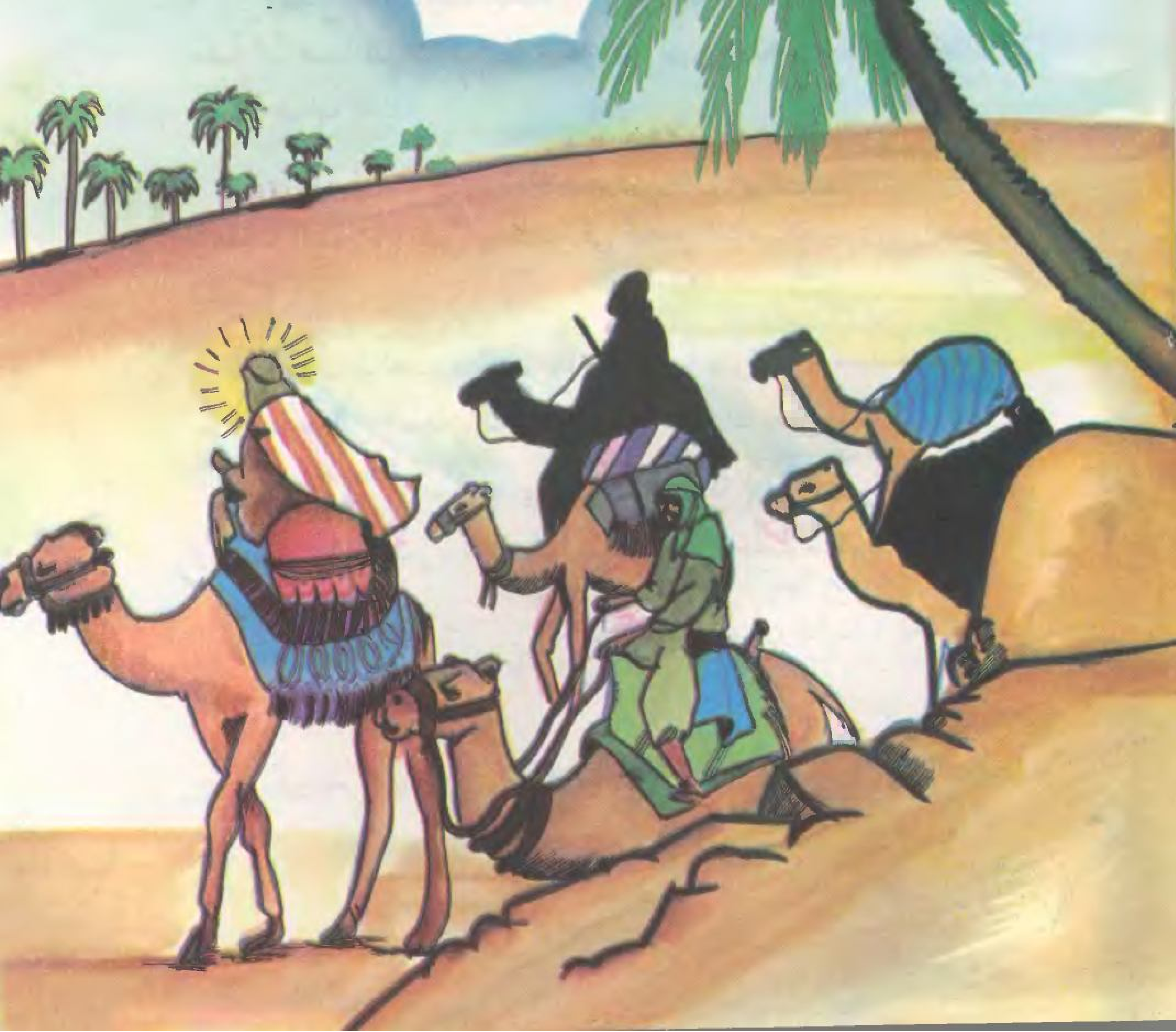
قال أبو طالبٍ : « فشكوتُ إلى محمدٍ ولا أرى عندَه شيئاً ، فَثَنَى وِرْكَهُ ، ثم أهوى بِعَقِبِهِ إلى الأرضِ ، فإذا بالماءِ ! . . . » .

فقالَ : « اشربْ يا عمّ ! . . » .

فشربتُ ! . . وكم كانت دهشةُ أبي طالبٍ عندئذٍ عظيمةً ! . . .

*** المشهدُ الثالث :**

كان أبو طالبٍ يستعدُّ للقيامِ برحلةٍ إلى الشامِ للتجارةِ . وَيَصْطَحِب معَه محمداً (ص) . وراحَ الرَّكبُ يقطعُ الصحارى ، ويجتازُ القِفَارَ ، حتى بلغَ « بُصْرى » من أرضِ الشامِ .



فنزلَ قربَ ديرٍ يستريحُ ! . .

ويُـطِلُّ « بُحَيْرا » راهِبُ الـديرِ العجـوزُ على الـركبِ القـادم ، ويمتَدُّ بصرُه إلى السماءِ ، وإذا بغمامـةٍ رقيقةٍ تسيـرُ فوقَ الـركب أنّى سارَ ، وتتبَعُهم كالظلِّ يتبعُ صـاحبَه . وكـأنها تقي هؤلاءِ التجـارَ لفحَ الهجير (أي : شدة حر الصحراء) .

وهـا هي ذي الغمامـةَ تتوقَّف فـوقَ الركبِ الـذي توقفَ قـربَ الديرِ ليستريحَ .

ويحـدِّثُ الراهبُ نفسَـه : إنَّ في الأمرِ لسـرّاً ! . إنـه لعجيبٌ حقـاً أمرُ هـذا الركبِ ! . لا شـكَّ في أنَّ لأحـدِهم كـرامـةً عنـدَ الله فأرسلَ غَمامةً تظلِّلُه . . .

وكلمعـةِ برقٍ ، . . . تلتمـعُ في ذهنِ الراهبِ بشـرى المسيحِ (عليــه السـلام) بنبيٍّ يـظهـرُ في آخـرِ الـزمـانِ.تُـرى ، أيكـونُ بينَهم ؟ . . .

وينزلُ الراهبُ من صومعتِه ، مرحِّباً بالركبِ ، مسلِّماً عليهم ، ثُمَّ يدعوهُم إلى الطعامِ ـ وما كانَ من عادتِه أن يفعلَ ذلك .

ويتفـرَّسُ الراهبُ (أي : يتـأملُ بـدقةٍ) في وجـوهِ مدعـوِّيه ، وكأنَّه يبحثُ عنْ شيءٍ . ثم يقولُ لهم : هل تخلَّفَ منكم أحدٌ ؟ . .

فيجيبونَ : لا ! . . . إلاّ غلامٌ تركناهُ عند رِحالِنـا ، تحتَ تِلك الشجرةِ .

وينـظرُ « بحيرا » ، وإذا بـالغمامـةِ فوقَ الشجـرةِ ، كـالمعلَّقـة

فَوقَها ، . . وإذا بالشجرةِ قد تدلَّتْ أغصانُها على الأرضِ فوقَ الغلامِ ! . .

فَيُتَمتِمُ الراهبُ بحيرا : هنا السرُّ ! . .

ويدعو الغلامَ ، فيقبلُ إليه ، . . ويتأملُ الراهبُ الغلامَ ، ويسألُ عمَّه عنه ، وعن ولادتِه ، وعن والديه ، ويكشفُ عن ظهرِ الغُلامِ ، فيتلألأُ خاتَمُ النبوَّةِ بينَ كتفيه . . فيشهَقُ الراهبُ . . . إنَّه النبيُّ الموعودُ في آخرِ الزمانِ ، وقال لعمهِ أبي طالبٍ :

ـ « ارجِعْ بابنِ أخيك إلى بلدِه ، واحذرْ عليه منَ اليهودِ ، فإنه كائنٌ لابنِ أخيك شأنٌ عظيم » .

فأسرعَ أبو طالبٍ بالعودةِ بابنِ أخيه ، وهو أشدُّ ما يكونُ حذَراً على ابنِ التسعِ سنينَ .

* المشهد الرابع :

مكة في جَلبةٍ وضوضاءَ ، للقَحْطِ الذي أصابَها من انحباسِ المطرِ . .

فاجتمعَ رجالُها لصلاةِ الاستسقاءِ ، وأقبلوا على دارِ أبي طالب يطرُقونَ عليه البابَ .

ولما فتحَ لهم ، قالوا :

ـ « يا أبا طالبٍ ، أقحطَ الوادي ، وأجدبَ العيالُ ، فَهَلُمَّ فاستسْقِ لنا ! »

ويَهمُّ أبو طالبٍ بالخروجِ معهم . لكنَّه عادَ ، وكأنَّه تذكرَّ

شيئاً ، ثم رجَع إليهم ، ومعه غلامٌ صغيرٌ ، هو محمد ، وانطلقوا إلى الكعبةِ ، بيتِ الله الحرام . .

وأخذ أبو طالب ابنَ أخيه وألْصَقَ ظهرَهُ بالكعبةِ ، ورفعَ محمدٌ (ص) نَظَرَهُ إلى السماءِ وأشارَ بإصبعِه إليها ، وإذا بالسحابِ يتراكمُ ، . . وإذا بالمطرِ ينهمرُ غزيراً ، حتى امتلأَ الوادي ، وأخصبتْ البوادي ! . . .

حقاً ، إنها ليست مشاهدَ فحسب ، بل مُعجزاتٌ ! . .

* * *

وتمضي السنواتُ ، ويمتلىءُ قلبُ أبي طالبٍ بابنِ أخيه حُباً ، ويُشْغَفُ به شَغَفَاً شديداً ! .

وكانت لأبي طالبٍ « سقايةُ الحاجِّ » ، فهوَ المشرفُ على سقايةِ حجاجِ بيت الله الحرام في موسمِ الحجِّ . وكان الماءُ أيامَذاكَ شحيحاً ، وإذا تيسَّرَ فكانَ طعمُه مَذِقاً ، لبعضِ مُلوحةٍ فيهِ ، لذلك ، كانَ أبو طالبٍ يشتري التمرَ والزبيبَ ، يضعُهما في الماءِ ليحلوَ ، ويعذُبَ طعمُه ، . .

ومن قبلُ ، كانَ أبوهُ عبدُ المطّلبِ يفعلُ ذلك ! فورِثَ عنه « السقايةَ » والسَّماحةَ والنَّدى ! . .

وَمَرَّ عامٌ كالحٌ أسودُ ، افْتَقَرَ فيهِ أبو طالبٍ .

إن « سقايةَ الحاجِّ » ، وكثرةَ العيالِ ، أتلفتَا مالَه ، فَنَفَدَ ! . .

فاستدانَ أبو طالبٍ منْ أخيه العباسِ ، عَشَرَةَ آلافِ دِرهم إلى

الحَول (عاماً كاملاً) وحالَ الحَولُ ، ولم يستطِعْ أبو طالبٍ ردَّها ! . .

فَذَهَب ثانيةً إلى أخيهِ العباسِ ، فاستدانَ منه أربعةَ عَشَر ألفَ دِرهمٍ ، . .

ولكنَّ العباسَ اشترَطَ على أخيه أبي طالبٍ أن يترك له « السِّقايةَ » إن لم يستطعْ تسديدَ ما تراكَمَ عليه من ديونٍ ، ويُمهلُهُ حولاً كاملاً ! . .

ويحولُ الحولُ ثانيةً ، وأبو طالبٍ في شِدَّةٍ وعسرٍ ! . .

وأُفلتتْ « السقايةُ » من يدِ أبي طالبٍ ، وقد جارَ عليه الزمانُ ،



لتستقرَّ في يدٍ تَنْعُمُ ببحبوحةِ المالِ ، وَوَفرتِه ، . . إنها يدُ أخيهِ العباسِ بنِ عبدِ المطّلبِ ! . .

ولكنَّ مكانةَ أبي طالبٍ في قومِه لم تَتَغَيَّرْ . . . فهي هي في السرَّاءِ كما في الضرّاءِ ! . . .

ويبقى أبو طالبٍ : سيدَ قومِه ، المرهوبَ الجانبِ ، النافذَ الرأيِ ، المطاعَ الأمرِ ! . . .

* * *

ويشِبُّ ابنُ أخيه محمدٌ (ص) ، تتحفَّزُ فيه عزيمةُ الرجالِ .

فَتُكَلِّفُه خديجةُ بنتُ خويلدٍ الاتّجَارَ بمالِها ، فيتاجرُ ، ويجني لها وافِرَ الأرباحِ !. .

فتُعجَبُ به ! . . وترسِلُ إليه ، عَارِضةً نفسَها عليه أن يتزوجَها ، فَيَقْبَلُ .

وكانتْ من قبلُ قد رَفَضَتْ سادةَ قريشٍ الذين أتَوْها يطلُبون يدَها .

ويتوجَّه أعمامُ محمدٍ (ص) إلى بيتِ خديجةَ يخطُبونَها لمحمدٍ (ص) وكانَ أبو طالبٍ الخاطِبَ والخطيبَ . فماذا قالَ ؟ . . .

قالَ : « الحمدُ لله الذي جَعَلَنا من ذرِّيَّةِ إبراهيمَ ، وزرعِ إسماعيلَ ، وضِئضِئِ مَعَدٍّ (أي : أصل معد) وَجَعلنا حَضَنَةَ بيتِه ،

وسُـوَّاسَ حَرَمِـه ، وجعلَ لنـا بيتاً محجـوجاً ، وَحَـرَماً آمنـاً ، وجعلنَا حُكَّامَ الناسِ ! . .

ثم ، إنَّ ابنَ أخي هذا محمَّداً بنَ عبدِ الله ، لا يوزَنُ بـرجلٍ إلَّا رَجَحَ به شَرَفاً ونُبلاً ، وفضلاً وعقلاً ، فإن كـانَ في المالِ قِـلٌّ ، فإنَّ المالَ ظِلٌّ زائلٌ ، وأمرٌ حائلٌ ، وعاريةٌ (أي : وديعة) مُستَرجَعة .

ومحمـدٌ مَنْ عرفتُم قـرابتَه ، وهـوَ ، والله ، لدَينـا عظيمٌ ، وذو خَطَرٍ جليلٍ جسيمٍ ! . . . »

وتدورُ أيامٌ ، وتكِرُّ أعوامٌ ، والأزمـاتُ الماليـةُ ما زالتْ تـلاحِقُ أبا طالبٍ ، فهو في ضائقةٍ . وكأنَّ الدهرَ نـاصَبَهُ العِـدَاءَ ، فلا يـرميه إلَّا بالضّيقِ الشديدِ ! .

وكـانَ من طبيعةِ الحـالِ أن يكونَ محمـدٌ (ص) أولَ من يشعرُ بالضائِقة الماليـةِ تصيبُ عمَّه ، فيتجـهُ إلى عمِّهِ العبـاسِ ، وكانَ من أيسرِ بني هاشمٍ ، قائلاً له :

ـ « يـا عباسُ ! . . إنَّ أخـاك ، أبـا طـالبٍ ، كثيـرُ العيـالِ ، وأصابَ الناسَ ما ترى من هذه الأزمةِ فـانطلِقْ حتى نُخففَ عنـه وعن عيالِه ! . . .

فانطلقا إليه

فقال لهما : اتركا لى طالبا وعقيلا ، وخذا من شِئتما !

فيـأخذُ العَبَّـاسُ جَعْفَراً ، فيضمُّـه إليه ، ويـأخذُ محمـدٌ (ص) علياً ، فيضمُّه إليه

وهكـذا يحتضنُ محمد (ص) علياً ، ويكفُلُه ، تمـامـاً ، كمـا سَبَقَ لأبي طـالبٍ أنْ احتضنَ محمـداً (ص) ، وكفَلَه ! . . انـه عَـودٌ على بدءٍ فيا لتَقديرِ علاَّم الغيوبِ ! . . .

* * *



وما هو إلَّا زمنٌ يسيرٌ ، حتى تَزِفَّ السماءُ إلى الأرضِ البشرى العظيمةَ : مُحمدٌ (صلى الله عليه وآله وسلَّم) رسولُ الله إلى العالَمينَ :

ويهبِطُ عليه الوحيُ بالآياتِ من القرآنِ ، وبالسُّوَرِ ، ويأمرُه الله عزَّ وجلَّ بتبليغِ دعوتِه ، فيستجيبُ عليٌ وخديجةُ ، فأخو النبي وزوجُه أوَّلُ مسلِمَين على وجهِ الأرضِ .

ثم يأتي أمرُ السماءِ : ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ ﴾

فَيُوْلِمُ محمدٌ (صلى الله عليه وآله وسلَّم) لعشيرتِه بني عبدِ المطَّلبِ ، ويدعوهم إليهِ ، فيتوافدَونَ .

ويعلنُ رسولُ الله (ص) فيهم دعوتَه . ويدعوهم للإسلامِ .

وينبري عمُّه أبو طالبٍ ، ليقولَ ، بعد كلامٍ طويلٍ :

ـ « إمضِ لِمَا أُمِرْتَ بهِ ، فوالله لا أزالُ أحوطُك ، وأمنعُك (أي : أحميك) .

فيردُّ عليه أبو لهبٍ بلاذعِ الكلامِ ! . .

ويَصرُخُ أبو طالبٍ بوجهِ أخيهِ أبي لهبٍ :

ـ « والله لنمنَعُه ما بقينا ، اسكتْ يا أعورُ ، ما أنتَ وهذا ؟ . . . »

ثم يلتفتُ إلى ابنِ أخيه محمدٍ متابِعاً :

ـ « قمْ سيّدي ، وتكلمْ بما تحبُّ ، وبَلّغ رسالةَ ربِّك فأنتَ الصادقُ الصدوقُ ! . . . »

ويتـدخَّلُ الأهلُ بين الأخَوَيْنِ، وقد اتّخـذَ كلٌّ منهمـا مـوقفـاً ، ويمنَعونَهما من متابعةِ هذا النقاشِ العاصِفِ .

ولا يلبثُ عليٌّ (عليه السلام) ، وقد سَمِعَ ما سمعَ ، أن يبادرَ إلى مبايَعةِ ابنِ عمِّه على ما جاءَ بهِ من عندِ اللهِ تعالى .

ويُتـوَّجُ هذا الاجتمـاعُ بكلمةٍ من النبيِّ (صلى الله عليـه وآلـه وسلَّم) تختصرُ الكثيرَ من الدعوةِ لاحقاً :

ـ « هذا عليٌّ أخي ، ووصِيّي ، وخليفتي من بعدي ، فاسمعوا له وأطيعوا ! . . » .

وينصرفون ! . .

ويلتفتُ أحـدُهم إلى سيدِ بني هـاشمٍ الوقـورِ ، أبي طـالـب . وهمـا يغادرانِ عتبـةَ الدارِ ، ويقـولُ لهُ بلهجـةٍ ظاهـرُ ها المـداعبةُ ، وباطِنُها الإنكارُ :

ـ « يا أبا طالب ، هذا ابنُكَ الغلامُ ، وصيُّ ابنِ أخيـك وخليفةٌ من بعدِه ، فاسمَعْ لَهُ وأَطِعْ ! . . . » .

وتمتدُّ دعوةُ النبيِّ (صلى الله عليه وآله وسلَّم) ، وتسـري في صفوفِ قريشٍ ، فَيَتْبَعُهُ خلقٌ كثيرٌ ، يزدادُ عددُه يوماً بعدَ يومٍ ! .

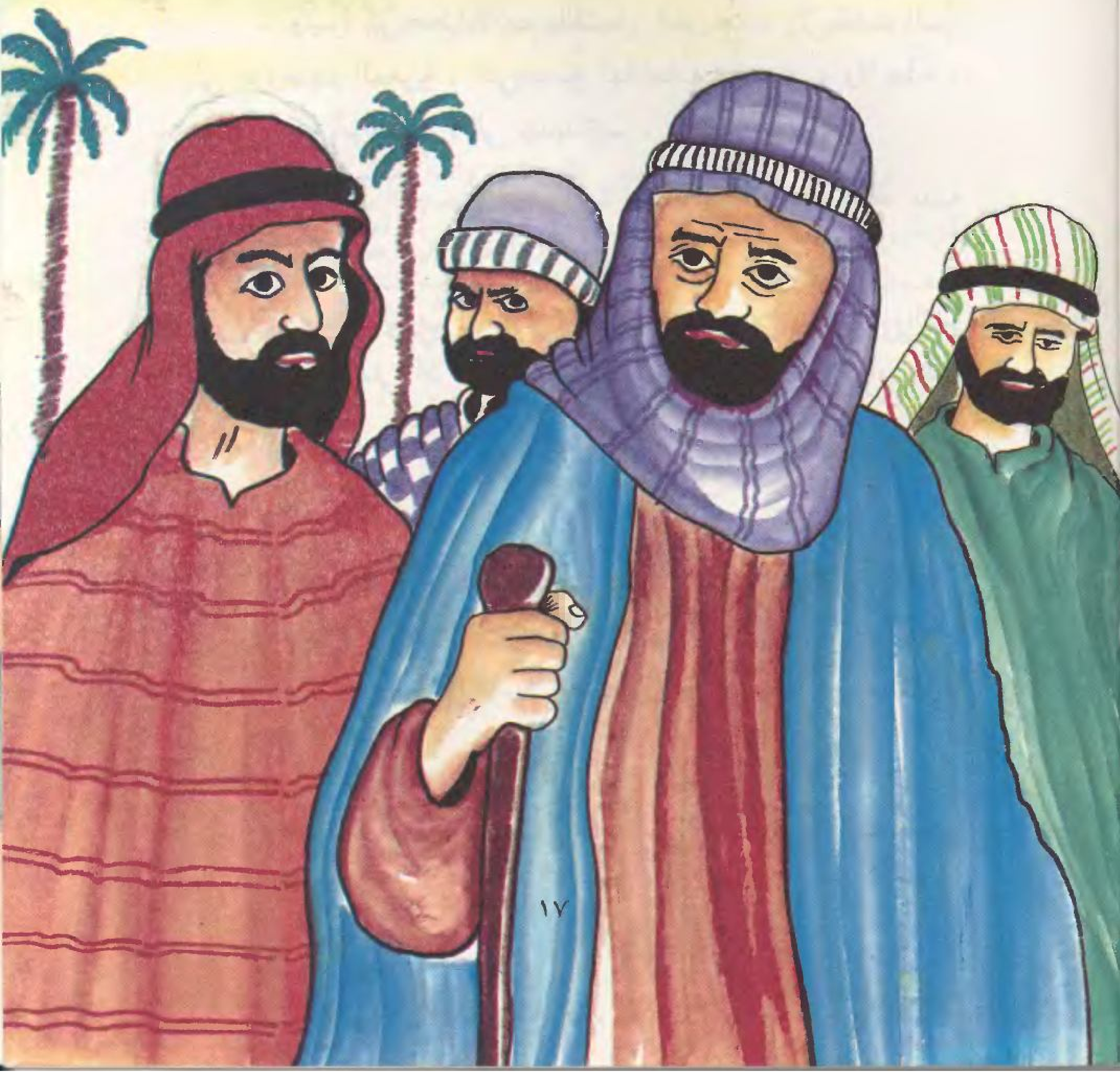
وتَتَّهِم قـريشٌ النبيَّ (ص) بكـلِّ تهمـةٍ : فهـو مجنـونٌ ، وهـو شاعرٌ ، وهو ساحرٌ . . .

ويُقبلون على عمِّـه أبي طالبٍ : حـاميهِ ، ونـاصرِه ، وكفيلِه ، والمدافعِ عنه ، . . .

أولاً ، . . وثانياً . . وثالثاً ، . . . قائلين :

ـ « يـا أبا طـالب . . . اكفُفْ عنَّا ابنَ أخيـك ، فإنَّـه قـد سفَّـهَ أحـلامَنا ، وَسَبَّ آلِهتَنـا ، وأفسَـدَ شبـابنَـا وفَـرَّقَ جمـاعتَنـا ، . . . » فيستمهِلُهم « شيخُ البطحاءِ » ، وينصرفون ! . .

ويدعو أبـو طالب إليـه محمداً ، يحـاورُه ، ويناقشُـه ، فيجيبُه النبيُّ (صلى الله عليه وآله وسلَّم) أخيراً :



ـ « يا عمُّ ! . . لا أستطيع أن أعصيَ أمرَ ربِّي ! . . » .

ويُعاوِدُ القرشيون الاتِّصالَ بأبي طالبٍ عارضين على محمدٍ (ص) بواسطتِه ، المالَ إن أرادَ مالاً ، والمُلْكَ إن شاءَ الرئاسةَ . .

ولكن محمداً (صلى الله عليه وآله وسلَّم) ، لا يرى إلَّا تبليغَ رسالةِ ربّهِ . .

ـ وَتَبُوْءُ كلُّ محاولاتِهم بالفشلِ الذريعِ ، ولا يلتفِتُ النبيُّ إلى عروضِهم المغريةِ ، التي يسيلُ لها لعابُ الطَّموحِ ، ولا يأبَهُ ، هو ، أو عمُّه أبو طالبٍ ، إلى تهديداتِهم .

ـ ويَقبلان التحديَ ! . . وقد لَخَّصَ النبيُّ (صلى الله عليه واله وسلَّم) موقفَه النّهائيَّ بقولِه الشهيرِ :

ـ « والله ، يا عمُّ ! . . لو وضعوا الشمسَ في يميني ، والقمرَ في يساري ، على أن أترِكَ هذا الأمرُ حتى يُظْهِرَهُ الله ، أو أهلَكَ فيه ، ما تَركتُه »

* * *

وفي مساءِ يومٍ يشاهدُ أبو طالبٍ ابنَه علياً يصلّي خلفَ الرسولِ (ص) ، وقد اختفيا حذَراً من المشركين فتقَرُّ بذلك عينُه ، ويقولُ لابنِهِ : « يا عليَّ الزمْ ابنَ عمِّك ! . . أما إنَّه لا يدعوك إلَّا لخير . »

ويشاهدُه مرةً ثانيةً يصلّي عن يمينِ الرسولِ ، فيلتفتُ إلى

ولدِه جعفرٍ الذي كانَ ساعتَئذٍ إلى جانبِه ، ويقـولُ لهُ : ـ صِـلْ جَناحَ أخيك ، فَصَلِّ عن يسارِه ! . . » .

ففعل ! . .

ولكن قريشاً لن تدعَ النبيَّ وشأنَه ، فآذَتْه أذىً شديداً، ولكنَّ أبا طالبٍ كان لهم جميعاً بالمرصادِ ! . .

فـانتصـرَ لابنِ أخيـه ، وحمـاهُ، وردَّ الأذى عنـه ، وكـالَ لهم الصاعَ صاعَيْن . فكفُّوا أيديَ سفهائِهم عن النبيِّ (ص) .

* * *

ووصـلَ أَمـرُ النبيِّ (صلى الله عليـه وآلـه وسلَّم) ، بـالنسبـةِ لقريشٍ ، إلى ما لا يُـطاقُ ،فلم تَعُـدْ تستطيـعُ أن تحتَمِلُه ، فيجتمعُ أربعـونَ من ساداتِهـا في « دار الندوةِ » ويتعـاهـدونَ فيمـا بينهَم على مقـاطعةِ بني هـاشمٍ ، ويكتبونَ في ذلـك صحيفـةً ، ويختُمـونَهـا ، ويُعلِّقونَها في الكعبةِ .

إنَّها حربٌ من نوعٍ جديد : مقاطعةٌ وحِصارٌ ! . .

ولمّا عَلِمَ بذلكَ أبو طـالبٍ جَمعَ من بني هـاشمٍ أربعينَ رجلاً ودخـلَ بهم « الشِّعبَ » في خارجِ مكَّـةَ وكانَ هـذا « الشِّعْبُ » ملكـاً لعبدِ المطلبِ ، فاشتُهِرَ مُنْذَاك بِشِعْبِ أبي طالبٍ ! .

وبادرَ إلى تحصينِ الشِّعبِ . فالأعـداءُ قد بَيَّتـوا لمحمدٍ (ص) شرّاً ! .

وكان أبو طالبٍ يُشرفُ بنفسِه على حراسةِ محمدٍ (صلى الله عليه وآله وسلَّم) في الليلِ ، والسيفُ في يدِه .

ويلجأُ إلى تغييرِ مكانِ مبيتِ النبيِّ (ص) كلَّ ليلةٍ أكثرَ من مرةٍ ، محافظةً عليه وتأميناً لسلامته الشخصيةِ كما كان يَكِلُ أمرَ حراستِه بالنهارِ إلى أولادِه وأولادِ أخيه .

وبقيَ الأمرُ على هذا الحالِ : بنو هاشمٍ مُحَاصَرون في الشِّعبِ ، أربعَ سَنواتٍ . . .

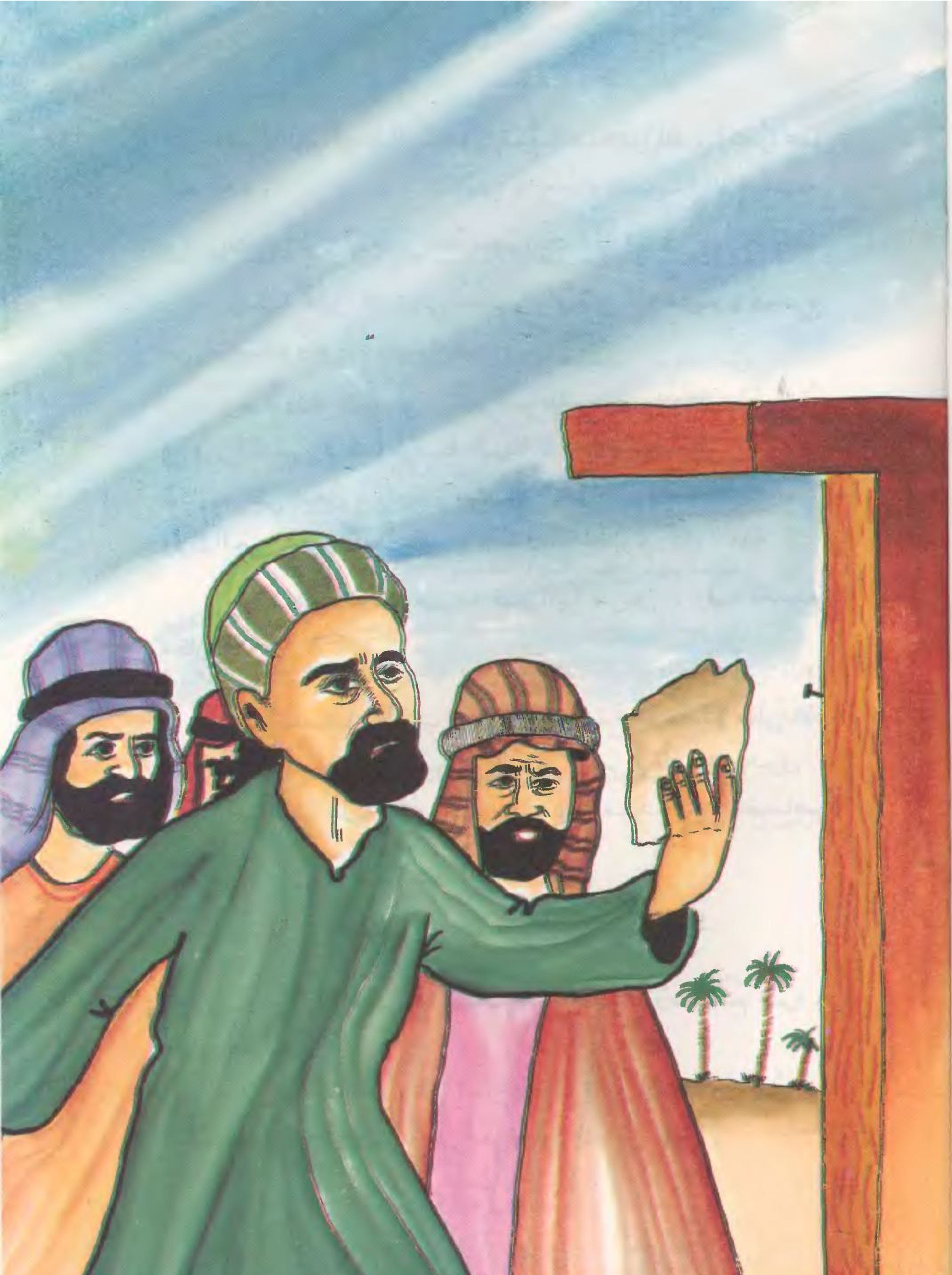
فأصابتهم البأساءُ ، والضرَّاءُ ،حتّى أنهم كانوا يقتاتون بورقِ الشّجَرِ في كثيرٍ من الأحيانِ .

ويأتي النبيُّ (صلى الله عليه آله وسلَّم) إلى عمِّهِ أبي طالبٍ ، في أحدِ الأيامِ مُستبشِراً ، ويخبِرُه بأن الله تباركَ وتعالى قد سَلَّطَ الأَرَضَةَ (وهي دُوَيْبَةٌ قارِضة) على صحيفةِ قريشٍ الظالمةِ ، وَمَحَتْ كلَّ ما جاءَ فيها باستثناءِ اسمِ الله تعالى .

فما كانَ من أبي طالبٍ إلَّا أن غادرَ الشِّعبَ ، على الفورِ ، واتَّجهَ إلى قريشٍ . وقد اجتمعوا في ناديهم ، فظنّوا أنَّه جاءَ يفاوِضُهم على تسليمِ ابنِ أخيهِ إليهم .

فأنبأَهم بما قالَ له ابنُ أخيه ، فإنْ كان حقاً ، فما عليهم إلا إنهاءَ قطيعتِهم وحصارِهم ، وإلَّا فهو مستعدٌّ أن يسلِّمَه إليهم .

فرضوا بذلك . وبعثوا مَن أتى بالصحيفةِ المعلَّقةِ في الكعبةِ ، وتأكّدوا من أربعين ختماً على ظهرِها ، ثم فكّوها ، فإذا ليسَ فيها حرفٌ ، إلَّا : « باسمِك اللَّهم » ! . .



فقال لهم أبو طالبٍ : « يا قومُ ! . . اتّقوا الله ، وكفوًّا عما أنتم فيه » .

فتفرقوا دونَ أن ينبسَ أحدٌ منهم ببنتِ شفَةٍ ! . .

وهكذا أَفْشَلَ الله تعالى خُطَّتَهم ، ونَصَر نبيَّه عليهم ، فَخَرج من الشِّعب ، وَخَرجَ معه بنو هاشمٍ .

وبعد ذلك بشهرينِ ، شَعر أبو طالبٍ رضوانُ الله عليه بدنوِّ أجَلِه ، فأوصى قريشاً بوصيةٍ طويلةٍ ، يحثُّهم فيها على اجتماعِ الكلمةِ على الحقِّ ، وتعظيمِ بيتِ اللهِ الحرامِ ، وصِلةِ الأرحامِ ، وتركِ البغيِ ، وإعطاءِ السائلِ ، وصدقِ الحديثِ ، وأداءِ الأمانةِ . .

وأوصاهم بمحمدٍ خَيْراً ، فَهُوَ أمينُ قريشٍ ، وفيه تجتمعُ مكارمُ الأخلاقِ . .

ويتنبَّأ بمستقبلِ العربِ يومَذاك ، فمن تبعَ محمداً (صلى الله عليه وآله وسلَّم) كانَ له المجدُ والسُّؤدَدُ ، ومن تخلَّفَ عنه هوى . « وإذا أعظمُهم عليه ، أحْوَجُهم إليه ، وأبعدهم منه أحضاهم عندَه ! . . »

ويدعو بني هاشمٍ ويوصيهم قائلاً :

ـ « لن تزالوا بخيرٍ ما سمعتم من محمدٍ ، وما اتَّبَعْتُمْ أمرَه ، فأطيعوه تَرشُدوا ! . . » .

وفي نِصفِ شعبانَ ، في السنةِ العاشرةِ من البعثةِ ، يلتحقُ أبو طالبٍ بجوارِ ربِّه الكريمِ ، عن عمرٍ تجاوزَ الثمانين عاماً ! .

ويأتي عليٌّ (عليه السلام) بخبرِ موتِه إلى النبيِّ (ص) ، فتنهمرُ عيناه الشريفتانِ بالدَّمعِ ، ويقولُ لهُ :

ـ « اذهبْ ، وغسِّلْه ، وكفِّنْه ، وَوَارِهِ . غَفَرَ الله لَهُ وَرَحِمَهُ ! » .

ولما سارت الجنازةُ اعترضَها الرسولُ (صلى الله عليه وآله وسلَّم) ، قائلاً :

ـ « وَصِلَتْكَ رَحِمٌ يا عمُّ ! . وَجُزِيتَ خيراً ، . . . أَمَا والله لأَسْتَغْفِرَنَّ لكَ ، ولأشْفَعَنَّ لَكَ ، شَفَاعةً يُعْجَبُ لها الثقلان ! . .

وهكذا ينهدُّ حصنُ النبيِّ الحصينُ في مكةَ ، وينهارُ ! . .

وفي ساعةٍ ـ بعد ذلك ـ كان قلبُ الرسولِ (صلى الله عليه وآله وسلَّم) طَافِحاً بالحزنِ والأسى ، واللوعةِ ، يهبِط عليهِ جبريلُ ، ناقلاً إليه أمرَ السماءِ :

ـ « يا محمد . . . اخرجْ من مكّةَ ، فقد ماتَ ناصِرُك ! . . . » .

* * *



بسمه تعالى

إنهم صفوة الصحب، زادهم هدي النبوة ألقا
فتسنموا المكان السامق، والمكانة الشامخة.
إنها سيرة حياة لاثني عشر منهم، كانت علواً فوق علو
ارتقت أرواحهم بأعمالهم صعداً، فانكمشت أمامهم اقزام الضلالة
والظلام. إنها سيرة هي السبيل القدوة والمنهج الأسوة.

الناشر

في هذه المجموعة

إعداد

الدار الإسلامية للطباعة والنشر والتوزيع

كورنيش المزرعة - بناية الحسن سنتر - طابق ثاني - هاتف: ٨١٦٦٢٧
ص.ب: ١٤/٥٦٨٠ - تلكس: ٢٣٢١٢ غدير
فرع ثاني: حارة حريك - شارع دكاش - هاتف: ٨٣٥٦٧٠ - ص.ب: ٢٥/٢٠٩